السّمات الإبداعية في شعر عَدِيِّ بن زيد العِبَّادي

الأستاذ الدكتور: صالح مفقوده
طالبة دكتوراه: سعاد غيابة
قِسْمِ الآداب واللغة العربية
كُلِّيَّةُ الآداب واللغات
جَامِعَةُ – بسكرة- (الجزائر)

ملخـــص:

يسعى هذا المقال إلى دراسة أهم سمات الإبداع الشعري عند أبرز شعراء العصر الجاهلي، وهو الشاعر(**عَدِيِّ بن زيد العِبَّادي**)، وهذا من خلال التطرق إلى: البواعث العملية الإبداعية عند الشاعر، وتمثلت في؛ المكان، الزمان، الواقع المعاش، وهذا كله بغية الوصول إلى أهم السمات الإبداعية التي تميز بها الشعر العِبَّادِي، وقد تجلت هذه السّمات في؛ السّبق إلى أغراض شعرية، ابتكار المقدّمات الشعرية، التشبيه المنفرد، وكذلك الإيقاع المتميز، وقد كانت بارزة وبوضوح في شعره من خلال أغراضه الشّعرية المختلفة.

Abstract:

This educational, analytic paper that belongs to applied stylistic studies aims at taking the responsibly from rhythmic stylistic in the poem of Affif Eddine tilmeçani , this poem represents many rhythmic figures independent from sufist poets, also it aims at analyzing to find the way to pronounce the language of the sufist poetic text.

In order to show the beautiful valves within the sound.

Key words:
Tilmeçani Sufism, external music, stylistics, inner music.

تمهيد:

يُعدّ الشّعر الجاهلي بمثابة القِبلة التي يتّجه إليها أغلب الدّارسين والباحثين؛ فقد استقطب ولا يزال يستقطب الدّراسات الجادّة، في مختلف التخصّصات الأدبية، فهو الأصل الذي يمثّلنا نحن العرب، وهو كما قال عنه **(أدونيس)**:«لا يزال الشّعر الجاهلي عند العرب أصلا ونموذجا»[1]، وإذا ما تعلق الأمر بالجانب الفنّيّ للشعر؛ نجد أنّ الباحثين قد أفاضوا الحديث فيه، وبيّنوا لنا دُرره المكنونة؛ والتي بدورها تختلف من شاعر لآخر، فلكلّ شاعر بصمته الخاصّة من الناحية الفنّيّة تميّزه عن بقية الشعراء، وهذا التميّز والتفرّد هو ما يسمّى بـ: "**الإبداع الشّعري**"؛ والّذي لا يتوفّر إلّا لشاعر متمكّن، يقوم بابتكار معانٍ وصورٍ جديدة لشعره، لم يسبقه إليها شاعر، أمّا دون ذلك فلا يُعَدّ الشاعر شاعرًا، خاصّة الذي يجتلب من الأقدمين دون إضافة لمسات إبداعيّة تميّزه شاعرًا، وفي هذا الصدد يرى **(ابن رشيق** (390هـ-456هـ)) أنّه:«إذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه أو استطراف لفظه أو ابتداعه.....، كان اسم الشّاعر عليه مجازًا لا حقيقة»[2]، وللإبداع الفنّيّ أصول وقواعد لابدّ أن تتوفّر فيه ليصبح إبداعًا بمعنى الكلمة، وقد ذكرتها **(خالدة سعيد)**، حيث رأت أن الإبداع:«يرفض بدئيًّا التقليد وكلّ طغيان يتمثّل "**بأحاديّة التعبير**"؛ أي القول بشكل فنّيّ ثابت أو شكل سابق على العمل الفنّيّ المفروض عليه من خارجه، فالأخذ بأحاديّة التعبير أو ثبات أشكاله يبطن نظرة أداتيّة ترى اللغة والشكل الفني"وعاءً" جاهزًا، أو مجموعة من المفردات والتراكيب القابلة للتكرار، القادرة على استيعاب الجديد المتنوّع، وتلبية الحاجات غير المتناهية»[3]، وكما عرفنا من هذا القول، أنّ العملية الإبداعيّة تتطلّب التجديد خاصّة في الجانب الفني، ولا تؤمن بمبدإ أحادية التعبير، أردنا أن نثبت هذه الحقيقة في الشعر الجاهلي، الذي شهد هو الآخر إبداعات فنّيّة كانت السبّاقة من نوعها، والتي أحدثت نوعًا من الحداثة آنذاك، وقد عمدنا في هذا المقام إلى تسليط الضوء على شعر شاعر من أبرز شعراء الجاهليّة، وأقلّ ما يقال عنه أنّه من دُهاتها الأوّلين في قول الشّعر، ونقصد بذلك الشاعر:(**عَدّي بن زيد العِبَّادي)**[4]. وعند استقرائنا لقصائد ديوان **(عَديّ)** تبدّت لنا مجموعة من السمات الإبداعيّة، وقد تفرّد فيها؛ كونه السبّاق لها مقارنة بشعراء عصره، وقبل معرفة أهمّ السمات الإبداعيّة عند الشاعر، لا بدّ لنا من الوقوف عند معرفة المنابع التي استقى منها الشاعر أثناء سير عمليّته الإبداعيّة، وعلى هذا الأساس تكون بداية انطلاق بحثنا عن بواعث التجربة الإبداعيّة عند الشاعر.

أولا: بواعث التجربة الإبداعية عند عَديّ:

لقد اجتمعت عدّة عوامل كانت بمثابة المحرّك، الذي دفع بالشاعر إلى خوض عمليّته الإبداعيّة، نذكر منها:

1- المكان:

طالما كان المكان في عصر الجاهلية، بمثابة المنبع الذي يستقي منه الشاعر، أثناء سير عمليّته الإبداعيّة؛ فقد كانت هناك علاقة وطيدة ربطت بين الشاعر الجاهلي وبيئته -بمختلف ظروفها-فحاكاها في شعره، وعبّر عنها بصدق ودقّة متناهية؛ وقد أبدع في وصف جزئيّات المكان؛ من خلال رصد مظاهر الحياة اليومية بأدقّ تفاصيلها، جاعلًا من المكان الرفيق الدائم للشعر، لا يُكتَب إلّا بحضوره، ويتحدّث **(باديس فوغالي)**عن كيفية حضور المكان في الشعر بقوله:« إنّما يتشكّل في التجربة الإبداعية انطلاقا واستجابة لما عاشه، وعايشه الأديب، إن على مستوى اللحظة الآنيّة ماثلًا بتفاصيله ومعالمه، أو على مستوى التخيّل وافدًا بملامحه وضلاله»[5]، وقد جاء في كتاب **(الشعر والشعراء)** أنّ الشاعر العاشق **(كُثَيِّر عَزّة)**، قد سُئل مرة عمّا يفعل إذا تعسّر عليه نظم الشعر فقال:«أطوف في الرّباع الخلية والرياض المعشبة، فيسهلُ عليّ أرصنته، ويُسرعُ إليّ أحسنه»[6]، ومن هذا نفهم أنّ للمكان دورًا مهمًّا جدًّا في كسب المَلَكة الشعريّة عند الشاعر، فهو يُحرّك بداخله جميع مكبوتاته، ويفجّرها إلى الخارج ليبوح بها الشاعر، في شكل كلمات منظمة ومرتبة.

والشاعر**(عديّ)**حضري المنشإ، كان قد عاش في بلاط الحيرة، وكان كذلك يتنقّل بين المدائن، التي بلغت أَوْجها من ناحية جودة المعيشة، التي وفّرها لها المكان، وكلّ ما يحتويه من مظاهر لحياة الرقيّ والحضارة، وممّا لا ريب فيه أنّ مثل هذه البيئة الخلّابة، كانت تسحر الإنسان العاديّ، ناهيك عن الشاعر المرهف الحسّ. وقد بلغ إعجاب **(عديّ)** ببيئته إلى درجة أنّه قام بوصف أدقّ التفاصيل عن بيئته في شعره، وكذلك قام بتشخيص بعض المظاهر الطبيعيّة الجامدة ليستنطقها، وعقد صوره الشّعريّة المختلفة بين الإنسان والمكان، وممّا جاء في شعره يصف حيوان الأتان في الحِيرة وكيف يشرب من نهر الفرات نذكر قوله:[7]

(بحر الطويل)

وَعُونٍ يُبَاكِرْنَ النَّطِيْمَةَ مَرْبَعَا جَزَأْنَ فَلَا يَشْرِبْنَ إلاَّ النَّقَائِعَا

تَضَيَّفْنَهُ حَتَّى جَمَدْنَ يَبِيْسَهُ وَآضَ الفُرَاتُ قَائِظًا لَيْسَ جَامِعَا

رسم لنا (**عديّ**) لوحة فنّيّة مستوحاة من صميم بيئته؛ وهذا حينما عرض لنا صورة قطيع من الأتان، وقد حلّ بُكرةً ضيفًا على أرض بـ:**(نجد)** ليشربَ ويرتوينَ من مائها، الذي ليس بالكثير بالنسبة إليهنَّ، فمن شدّة عطشهنَّ لم يُبقينَ في منبع الماء شيئًا، وهذا ما يدلّ على أنّ الأتان ستكمل طريقها، للبحث عن الأكل والشرب، وفي هذا دلالة واضحة على سيرورة الحياة وعدم توقّفها بالنسبة للأتان وبالنسبة للشاعر أيضًا.

ومن أجمل ما ذكر **(عديّ)** من مظاهر الطبيعة نذكر؛ صورة طبيعية استمدّها من حركات الكواكب والنجوم والأنواء؛ التي تجود على الزروع والنباتات بالخير الكثير، الذي يدلّ على استمرار الحياة بالنسبة لها، وللكائنات الحيّة الأخرى جمعاء، ومن قوله في وصف روض قد انهلَّ عليه المطر الغزير يقول:[8]

(بحر الرمل)

وَمَجُودٍ قَدْ اسْجَهَرَّتَنَا وِيْـ رَ كَلَوْنِ العُهُونِ فِيْ الأَعْلاَقِ
عَنْ خَرِيْفٍ سَقَاهُ نَوْءٌ مِنَ الدَّلْـ وِ تَدَلَّى وَلَمْ تُوَارَ العَرَاقِيْ
لَمْ يَعَبْهُ إلاَّ الأَدَاحِيُّ فَقَدْ وَبَّـ رَ بَعْضُ الرِّئَالِ فِيْ الأَفْلاَقِ

يصوّر لنا **(عديّ)** الرّوض الذي جاده المطر الغزير، والذي أعاد الحياة له؛ فقد نما ذلك الزرع، واستطالت فروعه، واكتسى حلّة بالإزهار والاخضرار، فزادته رونقًا وبهاءً، وكأنّ هذا الزرع فرح بما جادت به السماء من مطر، بعد انقطاعها عليه في فصل الصيف، فهي أول ما نزل من السماء بحلول فصل الخريف، وذكر لنا الشاعر أن منبع المطر كان من الدلو، الذي هو أحد أبراج السّماء المعروفة عند العرب قديما، فسالت مياه ذلك الدلو دون انقطاع، وكأنّه ممسك بخشبة قائمة لم تسقط، وبالتالي حافظ على تدفّق الماء في خطّ متساوٍ، وقد شبه **(عديّ)**بدلو الماء الحقيقي الذي يُستعمل في استخراج ماء البئر، وتثبت عراه ليحمل بها وبهذا يضمن سيرورة المياه وتدفّقها في ثبات.

2- الزمان:

لقد تناول الشعراء الجاهليّون موضوع الزمن، وطرقوه من جوانب عدّة، ورصدوا لنا مجموعة من الظواهر المتعلّقة به، فتحدّثوا عنه في أشعارهم باعتباره رمزًا يحمل بين طيّاته مجموعة من الدلالات الخفيّة.وقد جاء في كتاب **(الموت في الشعر الجاهليّ)** أنّ: الشعراء آنذاك تحدّثوا عن الزمن من ناحية الرؤية الوجوديّة له، وذلك حين طرقوا مواضيعها التي تمثّلت في:«حتميّة الموت وإتيانه على جميع الخلائق وعن تفاوت الآجال، وعن كراهيّة الإنسان للموت. وهم في كلّ ذلك يصوّرون الموت طالبًا والإنسان مطلوبه، أو صائدًا يُلقي شباكه على النّاس، فيصيب منهم ما يريد. لأنّ سهمه لا يخطئ وقصده لا يخيب.»[9] وفي شعر **(عَدّي)**أخذت النظرة الوجودية نصيبًا وافرًا من قصائد شعره، فنجد تذكيرًا بالموت وهذا من خلال التحذير من تقلّبات الدّهر على الإنسان وهو غافل، وفي هذا الصدد يقول عديّ:[(10)]

(بحر الخفيف)

إنَّ لِلدَّهْرِ صَوْلَةً فَاحْذَرْنَهَا لاَ تَبِيْتَنَّ قَدْ أَمِنْتَ الدُّهُورَا
قَدْ يَنَامُ الفَتَى صَحِيْحًا فَيَرْدَى وَلَقَدْ بَاتَ آمِنًا مَسْرُورَا

وفي السياق نفسه نجد الشاعر يتكلّم عن صروف الدهر، وتقلّبات الأحوال على البشر، وخاصّةً الملوك منهم، مذكِّـرًا بأنّ دوام الحال من المحال، وأن مصير الإنسان مهما بلغ شأنه هو الموت يقول:[11]

(بحر الخفيف)

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَومِ نُوحٍ ثُمَّ عَادٌ مِنْ بَعْدِهِمْ وَثَمُودُ
أَيْنَ آبَاؤُنَا وَأَيْنَ بَنُوهُمْ أَيْنَ آبَاؤُهُمْ وَأَيْنَ الجُدُودُ
سَلَكُوا مَنْهَجَ المَنَايَا فَبَادُوا وَأَرَانَا قَدْ كَانَ مِنَّا وُرُودُ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الأَسِرَةِ وَالأَنْـ اطِ أَفْضَتْ إِلَى التُّرَابِ الخُدُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقضِ الحَدِيثُ وَلَكِنْ بَعْدَ ذَا الوَعْدُ كُلُّهُ وَالوَعِيدُ
وَالأَطِبَّاءُ بَعْدَهُمْ لَحَقُوهُمْ ضَلَّ عَنْهُمْ سُعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ
وَصَحِيحٍ أَضْحَى يَعُودُ مَرِيْضًا وَهُوَ أَدْنَى لِلْمَوتِ مِمّنْ يَعُودُ

ففكرة الفناء كانت بمثابة المحرّك للشّعور الدينيّ، الّذي فرض نفسه على الخطاب الشعريّ لـ(**عدّي بن زيد**) لِسَدّ الفراغ الرّوحيّ، الذي يعيشه في غياهِب السجن، حين وقف مذكِّرًا بحتميّة الموت، بهدف توجيهنا إلى المُثُل والأخلاق الحسنة، وقد استعان بالقصص التاريخية لإبراز حتميّة الموت فـ: «هو يتّخذ من التاريخ دروسًا وعظات، يتفكّر في مصير النّاس وفناء الماضين وزوال النعم، وهو في مواضِع كثيرة من شعره؛ يقصّ على الناس أخبار الملوك والجبابرة الذين أبادهم الدّهر وأخفى عليهم الزمان، ولذلك فلا مطمح في الدنيا ولا مأمن من غدرها، فالإنسان ضعيف في هذه الدنيا، يسافر في طريق الفناء، فلا يغرنّك ما تراه من رفاه الناس وما عليهم من نعمة وترف»[12]، معبّرا بذلك عن سؤال وجوديّ في قوله: (**أَينَ أَهلُ الدِّيَارَ منْ قومِ نُوحٍ**)، وقد ربط الشاعر هذا السؤال بالمكان مذكِّرا بالأمم السابقة التي كانت في غفلة ورغد عيش وما آلت إليه، واعتمد الشاعر لتأكيد حتميّة الفناء على التكرار الذي جاء بصيغة الاستفهام، وقد أراد به ترسيخ فكرة الفناء في ذهن المتلقّي.

3- الواقع المعاش:

إنّ الواقع المعيش يفرض نفسه على العمل الأدبيّ مهما كان نوعه، فلا يمكننا أن نتصوّر وجود عمل أدبيّ يخلو من تصوير للواقع؛ لأنّ الأدب يرتبط بالحياة من جميع نواحيها، وكلّما كان الشاعر قريبًا من الواقع ويحاكيه، كان نتاجه الشعري أجود. يقول (**عبد المنعم الرجّبيّ**):«إذا اجتمعت المعايشة والقدرة على الإبداع، فإنّنا سنشهد - بلا شكّ - ولادة عمل جيّد، نقرؤه فنشعر به وننفعل وكأنّه يهمّنا، ونشعر في ذوات أنفسنا أنّنا عايشناه ومررنا به، وشهدنا اكتماله ونضوجه»[13]، والمتصفّح لشعر (**عديّ**) يجد نقلًا واضحًا للواقع المعاش آنذاك،فهو الذي عاش في بلاط (**كسرى**)، وبلاط الملك (**النعمان بن المنذر**)، وعمل كاتبًا عند كسرى ورسوله إلى المدائن، فهذه الحياة الحضريّة التي نعم بها الشاعر نقل لنا بعضًا من

مظاهرها،خاصّة الحياة اليوميّة التي عاشها،من ذلك نذكر:حديثه عن الجواري ولباسهنَّ الفاخر من الحرير، ووصف النساء وصفًا دقيقًا من ناحية الحليّ والأساور وموضعها الذي تلبس فيه، وعن رائحة المسك والعطر والعود تنتشر وتفوح منهنّ، وهو وصف حضريّ لأولئك النسوة يقول:[14]

(بحر السريع)

قَدْ آنَ أَنْ تَصْحُوَ أَوْ تُقْصِرْ وَقَدْ أَنَى لِمَا عَهِدْتَ عُصُرْ

عَنْ مُبْرِقَاتٍ بِالبُرِينَ وَتَبْـ ـدُو بالأَكُفِّ اللاَّمِعَاتِ سُوُرْ

بِيْضٌ عَلَيْهِنَّ الدِّمَقْسُ وَبِالْ أَعْنَاقِ مِنْ تَحْتِ الأَكُفَّةِ دُرّْ

وليس بغريب أن يبدع(**عديّ**)في وصف النسوة؛ فهو الّذي ترعرع في القصور التي تملؤها النسوة باختلاف طبقاتهنّ، وكان شديد الإعجاب بما تضعه النسوة من زينة على أعناقهنّ وزنودهنّ، ومن لباس حريريّ ناعم الملمس، وحليّ لامع تجمّلْنَ به زاد من جمالهن، فالشاعر وصف النسوة وصفًا خارجيًّا، وهو غزل عذريّ.

ونلاحظ كذلك أنّ (**عديّا**) وصف الفرس وصفًا حضاريًّا يتماشى وفق بيئته التي عاش فيها، يقول:[15]

(بحر الرمل)

وَلَقَدْ أَغْدُو وَيَغْدُو صُحْبَتِيْ بِكُمَيْتٍ كَعُكَاظِيِّ الأُدُمْ

فَضَلَ الخَيْلُ بِعِرْقٍ صَالِحٍ بَيْنَ يَعْبُوبٍ وَمِنْ آلِ سَحَمْ

فَتَنَامَتْ أَفْحُلٌ نُجْبٌ بِه فَهُوَ كَالتِّمْثَالِ جَيَّاشٌ هَزِمْ

مُسْتَخِفِّينَ بِلاَ أَزْوَادِنَا ثِقَةً بِالْمُهرِ مِنْ غَيرِ عَدَمْ

فَإِذَا العَانَةُ فِيْ كَهْرِ الضُّحَى دُونَهَا أَحْقَبُ ذُوْ لَحْمٍ زَيِمْ

زَهِمُ الصُّلْبِ رِبَاعٌ جَانِبٌ مَارِحُ الآخِرَ مِنْهُ قَدْ نَجَمْ

لاَصَغِيْرٌ ضَارِعٌ ذُوْ سَقْطَةٍ أَوْ كَبِيْرٌ كَارِبٌ سِنَّ الهَرَمْ

من النادرِ أن نجد شاعرًا من شعراء العصر الجاهلي يهتمّ بوصف الفرس على حساب الناقة؛ حيث إنّ أغلب الشعراء الجاهليين كانوا يصفون النّاقة أكثر من الفرس، وهذا راجع إلى طبيعة البيئة التي نشؤوا فيها، فشعراء البادية غير شعراء الحضر، من ناحية وصفهم لمركبهم، فالنّاقة عند البدويين يحتاجون إليها، ويعتمدون عليها في حِلهم وترحالهم أكثر من الفرس؛ الذي يُعَدُّ رمزًا من رموز متاع الحياة وزينتها، فهو أنسب إلى حياة المجون واللهو، والاستمتاع والتحرّر، وهو الرفيق الدائم في الصّيد والفروسية، وهذه المظاهر الحياتيّة كانت من أبرز مميّزات حياة (**عديّ**)التي كانت تتّسم بالترف واللهو في مراحلها الأولى، وعلى هذا نجد أنّ للفرس مكانة خاصّة عند الشاعر، فقد وصفه في أكثر من قصيدة، بل أفرد له قصائد مستقلّة في وصفه، وفي النموذج السابق الذكر نجد أنّ الشاعر وصف غدّوه

مع أصحابه بفرسه، الذي جاء لونه بين السّواد والحُمرة، وهو اللون المميّز عند العرب، وبالتالي فإنّ فرس الشاعر مميّز ومفضّل عن غيره من الفرس من ناحية لونه وقوّته وعدائه، جاعلًا منه مثلًا أعلى لكلّ فرس.

4- العامل النفسي:

يُعَدّ العامل النفسي بمثابة المحفّز الذي يبعث بظلاله على الشاعر؛ لكي يبدع لنا ممّا جادت به قريحته، ويحسّ كلّ من يقرأ شعره أنّه جزء من عالم الشاعر، ويبادله الشعور نفسه، ويقرّر علماء النفس أنّ: «العمل الشّعري الإبداعيّ والذي يجعل القارئ يعايشه في أثناء تلقّيه للعمل يجد الخبرة نفسها التي عاناها الشاعر»[16]، ولعلّ ما ميّز حياة **(عديّ)**هو وجود التضادّ فيها؛ فالمرحلة الأولى من حياته كانت في رفاهية عيش، وسلطة سياسيّة واقتصاديّة ودينيّة، أمّا المرحلة الثانية فقد قضاها بين جدران السجن، وما نتج عنها من شعور بالظلم والقهر، وقد أثّر سجنه في حياته، حيث صوّر لنا ما عانه في شعره، الذي كان في هذه المرحلة عبارة عن تأمّلات فلسفيّة إنسانيّة، قالها الشاعر وأبدع في قولها، وكان إنتاجه الشعري فيها غزيرًا، فمعظم ما قاله من شعر كان في سجنه، فلذا كان شعره صادقًا وُلِدَ من رحم المعاناة والظلم، وقد ورد في كتاب **(رثاء الأبناء في الشعر العربي)** أنّ:« المعاناة الحقيقية، تزيد من الاندغام في الحدث، وتوثّق الصلة بين الشاعر والموضوع، وتحصل معايشة في أعمق مستوى، وأرقى صورة»[17]، ولقد صوّر لنا **(عديّ)** حاله في السجن تصويرًا دقيقًا، بدءًا من الأغلال والقيود إلى الألم والمعاناة النفسيّة التي يمرّ بها، ويزداد الألم والفاجعة عند الشاعر حين يدرك ويؤمن بحقيقة مرّة مفادها؛ أنّ ربيبه(**النعمان بن المنذر**) كان ملكًا ظالمًا في حكمه، ومتسرّعًا في قراراته، والذّي يؤكد لنا هذا هو سجنه لـ(عدي) الذّي كان ساعده الأيمن، وهذا دون جريمة ارتكبها أو جناية جناها، ومردّ هذا إلى وشاية كاذبة من الأعداء الذين لم يرضوا بمكانة عديّ المتميّزة والرفيعة عند الملك، وقد ذكر الشاعر ما فعله أعداؤه، وذلك حينما قال:[18]

(بحر الوافر)

سَعَى الأَعْدَاءَ لاَيَأْلُونَ شرًّا عَلَيَّ وَرَبَّ مَكَّةَ وَالصَّلِيبِ

أَرَادُوا أَنْ يُمَهَّلَ عَنْ كَبِيْرٍ فَيُسْجَنَ أَوْيُدَهْدَى فِيْ قَلِيْبِ

ويصور لنا عدي حاله في السجن، يقول:[19]

(بحر الخفيف)

أَبْلِغَا عَامِرًا وأَبْلِغْ أَخَاهُ أَنَّنِي مُوثَقٌ شَدِيْدٌ وِثَاقِيْ

فِيْ حَدِيدِ القِسْطَاسِ يَرْقُبُنِيْ الحَا رِسُ وَالمَرْءُ كُلَّ شَيْءٍ يُلاَقِيْ

فِيْ حَدِيْدٍ مُضَاعَفٍ وَغُلُولٍ وَثِيَابٍ مُنَضَّحَاتٍ خِلاَقِ

في هذه الأبيات نجد أن الشاعر قد أراد أن يوصل رسالة إلى أخويه الموجودَين في بلاط الفرس، مفادها أنّ أخاهم**(عديّ)** بين غياهب السجن يعاني معاناة شديدة، وقد تمثّلت هذه المعاناة في أنّه مكبّل بالقيود الحديديّة التي تحاصره من كلّ جنب، والحارس المكلَّف بمراقبته ليل نهار، ولم يتوقّف الأمر هنا فحسب، بل صوّر لنا أشدّ أنواع التعذيب التي تمارَس ضدّه، وهي أنّ ثيابه البالية التي يرتديها كانت تُرَشُّ كلّ يوم بالماء البارد، وهذا نوع من التعذيب فيه نوع من الإهانة والمذلة بالنسبة للشاعر، فبعدما كان يعيش في ترف ومنصب سامٍ وشهرة واسعة، أصبح بين ليلة وضحاها مُهانا بين قضبان السجن، يعامَل معاملة سيّئة يستوي فيها مع الخائن أو المجرم، مع أنّه بريء من كلّ ما قاله الوشاة فيه.

وما يمكننا قوله عن التجربة الإبداعيّة العبّاديّة؛ أنّها كانت ثمرة تلاقح العوامل الخارجيّة: (زمان-مكان-وواقع معيش)، والداخليّة بالنسبة للشاعر(العامل النفسي). وهذه العوامل استغلّها الشاعر أحسن استغلال، فأنتجت لنا قصائد رائعة خلّدها الأدب العربيّ وانفرد بها الشاعر، ويوضّح لنا **(أدونيس)**حياة الشاعر الجاهليّ على أنّها بؤرة نفسية، تتلاقى فيها العوامل السالفة الذكر في قوله:«من هنا كانت حياة الشاعر الجاهليّ بؤرة نفسية يتلاقى فيها المكان والزمان، الضرورة والمصادفة، وهكذا يعرض نفسه قصديًّا لمصادفات الحياة؛ فمن يملك الشجاعة ليجابه خطر المكان هو وحده، يعرف كيف يكون سيّد مصيره»[20].

ولكي يتّضح لنا ما قلناه سابقا فيما يخصّ بواعث التجربة الإبداعيّة، لا بأس من أن نورد مخطّطًا يبيّن ما ذكرناه:

مخطط يوضح بواعث التجربة عند عَديّ بن زيد العبّادي

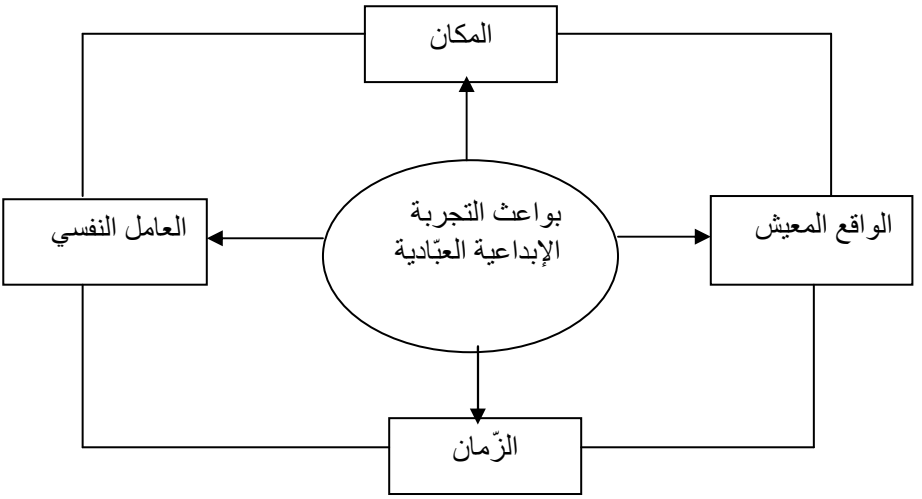

ثانيا: السمات الإبداعية في الفضاء الشعري العبّادي:

تنوّعت السمات الإبداعيّة في شعر عديّ بين الفكريّة والفنّيّة، وسنكتفي في هذا الصدد بذكر الفنّيّة منها، والتي وجدناها كالآتي:

1- ابتكار مقدّمات جديدة:

أ/مقدمة النار:

تُعدّ النّار من أهم الظواهر التي عرفها الإنسان منذ نشأته الأولى، فهي بمثابة:«الاختراع العظيم للجنس البشري»[21]، وإذا ما كان الحديث عن موضوع النّار الوارد في أشعار الجاهليّين، فإنّنا نجده يحتلّ الصدارة؛ فالنار بجميع دلالاتها لا تكاد تخلو من أيّ قصيدة، سواء أكان ذكرها صريحًا أم عن طريق الدلالات، مثل الأثافي والرّماد...، ومن أهمّيّة ذكر النّار في الشعر الجاهلي نجد أنّ هناك من الشعراء مَنْ أفرد لها مقدّمة خاصّة يستفتح بها قصيدته، ونقصد في هذا المقام الشاعر**(عدّي)**، الذي يعدّ أوّل من ابتكر هذه المقدّمة، فقد أبدع وتفرّد في هذا الجانب، فلا نكاد نجد-على حدّ علمنا-شاعرًا من الشعراء الجاهليين استعملها كمقدّمة لقصيدته، فقد تفرّد**(عديّ)**في هذه المقدّمة،وجعلها مدخلًا لبعض قصائده. ومن قوله مقدّمة ذكر فيها النّار نذكر قوله:[22]

(بحر مجزوء الرمل)

أَبْصَرَتْ عَيْنِي عِشَاءً ضَوْءَ نَارِ مِنْ سَنَاهَا عَرفُ هِنْدِيٍّ وَغَارِ

أَرَّثَتْ فِيْ عَرَفٍ مَوْقِدَهَا فَأَضَاءَتْ لَمْعَ كَفٍّ بِسِوَارِ

مَيُّ إِنِّي بِكُمُ مُرْتَهَنٌ غَيْرَ مَا أَكْذِبُ نَفْسِيْ وَأُمَارِي

يرصد لنا الشاعر حقيقة إبصاره ليلًا نارًا موقدة، وقد اهتدى إليها بفضل ريحها الطيب؛ لأنها كانت مشتعلة بعرف شجر طيب الرائحة وهو الغار وكان: «الشعراء إذا أرادوا مدح موقد النار وصفوه بأنه يوقدها بالقطر والمندل والغار...»[23]والرائحة الطيبة للغار المشتعل ذكرته بمحبوبته **(ميّ)** التي كان طيفها يتصوّر للشاعر حينها، وذلك عندما ازدادت النار اشتعالا،فقد لمح الشاعر كفًّا به صور يلمع، وكلّ هذا ما هو إلا اشتياق ولوعة لمحبوبته، لذلك استحضرها فكريًّا، وكأنّها طيف يمرّ عليه ويزيده أرقا واشتعالا لنار الصبابة.

ونجده في مقدّمة أخرى من مقدّمات قصائده يوجّه خطابه إلى محبوبته، التي تقوم بفعل إشعال النار، وأيّ نار إنّها نار الوَلَع والاشتياق يقول[24]:

(بحر الرمل)

يَا لُبَيْنَى أَوْقِدِيْ النَّارَا إِنَّ مَنْ تَهْوَيْنَ قَدْ حَارَا

رُبَّ نَارٍ بِتُّ أَرْمُقُهَا تَقْضِمُ الهِنْدِيَّ وَالغَارَا

والملاحَظ على مقدمّة النّار في كلا النموذجين السابقين، أنّها تقوم على ثلاثة أركان أساسيّة مكرّرة وهي:المرأة، والنّار، والغار؛ وكلّ واحدة منها لها دلالات تتعلّق بحياة الشاعر خاصّة وأنّ النموذجين قد قيلا وهو في السجن، فلا مجال له للتغزّل ولا لاستحضار المحبوبة، فالمرأة تُعَدُّ مصدر إلهام أيّ شاعر، فلا نكاد نجد شعرا سواءٌ أكان قديما أم حديثا يخلو من ذكرها، فهي تُعَدُّ رمزا للحرّيّة الفكريّة، فالنّار لها دلالات كثيرة تتحدّد من خلال موقعها في الكلام، وهنا تكلّم الشّاعر عن الضوء المنبثق منها، والذي جعله يرى كلّ شيء بوضوح تامّ، وبالتالي استعملها كدلالة عن النور، أمّا الغار فهو شجر تفوح منه رائحة طيّبة إذا ما اشتعل، وقد كان قديما عند الإغريق والرومان يعد رمزا للنصر، وبالتالي فاجتماع المرأة(الحب)/النار(النور)/الغار(النصر) = الحرّيّة المطلقة؛ وهذا يعني أنّ(عديّا)أراد بتوظيف هذه الأركان الحرّيّة المطلقة والتحرّر من القيود التي تعيقه جسديّا، وهو بهذا أراد الانتصار على أعدائه الظالمين، وعلى رأسهم الملك (النّعمان)، فالشاعر في رحلة بحث عن الأمل والحياة وتحقيق النصر.

ب/ المقدمة الحكمية:

تُعَدُّ الحكمة الجاهليّة بمثابة المثل العليا السائدة في ذلك العصر، فهي ثمرة تجارب طويلة، خاصّة أنّها اتّسمت بالواقعيّة والصدق في التعبير عن التجارب والخبرات، والمُطّلع على الشعر الجاهلي يجد أنّ أغلب شعرائه يطرقون باب الحكمة بوصفها الفنّ الذي يستطيع أن يحافظ على الفضائل التي طالما افتخر بها الإنسان الجاهليّ وحافظ عليها، والحكمة على حدّ تعبير **(يحي الجبوري)**، هي: «نظرات وانطباعات وتأمّل في الحياة والموت، ومحاولات لسنّ نظم خلقية يتّبعها النّاس فيما يرضونه من خصال وسلوك، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات، ولذلك جاءت حكمتهم حقائق مجرّدة في متناول الفطرة السليمة تمليها التجربة والمشاهدة وفق مثلهم العليا السّائدة في عصرهم»[25]، وإذا ما تكلّمنا عن الحكمة في شعر **(عَدّي)**، فإنّنا نجد ديوانه تكاد تكون أغلب قصائده حِكم، ولهذا نستطيع أن نقول عنه: إنّه شاعر الحكمة في الجاهليّة وبامتياز، وما يتميّز به عدي في مجال الحكمة هو أنّه أورد في شعره مقدّمات حكميّة فالشاعر: «يتفرّد –أو يكاد- بإتحاف الشعر العربيّ بمقدّمات حكميّة، وهو ما لم يكن مألوفا لدى الشعراء من غير شعراء المدن»[26]أتحفنا به شعره من ذلك قوله[27]:

(بحر المنسرح)

لَمْ أَرَ كَالفِتْيَانِ فِيْ غَبْنِ الْ أَيَّامِ يَنْسَونَ مَا عَوَاقِبُهَا
مَا يَغْفَلُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْيَتَمّ فِيْ كُلِّ صَرْفِتَسْعَى مَآرِبُهَا
يَرَوْنَ إِخْوَانَهُمْ وَمَصْرَعَهُمْ وَكَيْفَ تَغْتَالُهُمْ مَخَالِبُهَا
مَاذَا تُرَجِّيْ النُّفُوسُ مِنْطَلَبِ الـ خَيْرِ وَحُبُّ الحَيَاةِ كَاذِبُهَا
تَظُنُّ أَنْ لَنْ يُصِيبَهَا عَنَتُ ال دَّهْرِ وَرَيْبُ المَنُونِ كَارِبُهَا

فقد رصد لنا **(عَديّ)**في هذه المقدّمة الحكميّة تغافل الفتيان عن الموت، وقد رأوا إخوانهم كلّ يوم يذهب أحدهم بدون رجعة بفعل الموت، وقد استطاع الشاعر بفضل بصيرته الثاقبة وعلمه بجميع الأمور الدنيوية أن يوجّه رسالة توعيظيّة إلى الفتيان قائلا لهم:إنّ زوال الإنسان حقيقة لا مفرّ منها، فمهما كانت مكانته أو حاله فجميع البشر سواء أمام شبح الموت.

ج/ المقدّمة الليلية:

إنّ الليل عند الشاعر الحزين بمثابة الشبح الذي يحلّ عليه؛ ففيه تُقْبِلُ الأحزان والآلام عليه من كلّ حدب وصوب، ويطول هذا الليل الكئيب على الشاعر، ولا يكاد ينبلج الصبح إلّاوقد تمكّن من الشاعر وأرّقه، ويعكس لنا الشاعر شعوره على أرض نصّه الأدبي؛ فيصوّر لنا حاله وشعوره وطول الليل عليه من كثره الهموم، وغالبا ما يتناول الشعراء الجاهليّين الليل في ثنايا قصائدهم، أمّا أن يأتي كمقدّمة لقصائدهم فهذا قلّما نجده عندهم، ولم نجد من الدارسين الذين تكلّموا عن مقدّمات القصائد الجاهليّة، ومن أفاض في الحديث عنها، أو حتّى أشار إليها.وقد جاء في كتاب **(مقدّمة القصيدة العربيّة)** حديث موجز عنها، وقد ذكرها صاحب الكتاب بقوله:«مقدمة الليل وصف الشعراء طول ليلهم، وما يقاسونه في دياجيه من أحزان وأشجان»[28] ، وفي مقابل هذا نجد أنّ(عديّا)اهتم بهذه المقدّمة وجعلها مقدّمة لبعض قصائده،ومن نماذج مقدّمة شكوى الليل وهمومه نذكر قوله:[29]

(بحر الرمل)

طَالَ ذَا اللَّيلُ عَلَينَا فَاعْتَكَرْ وَكَأَنِّي نَاذِرُ الصُّبحِ سَمَرْ
مِنْ نَجِيّ الهَمّ عِنْدِي ثَاوِياً بَيْنَ مَا أُعْلِنُ مِنْهُ وأُسِرُّ
وكَأَنَّ اللَّيلَ فِيهِ مِثْلُهُ وَلَقِدْمًا ظُنَّ بِاللَّيْلِ القِصَرْ
لَمْ أَغْمِضْ طُولَهُ حَتَّى انْقَضَى أَتَمَنَّى لَو أَرَى الصُّبْحَ جَشرْ

استطاع **(عديّ)** من خلال هذه الأبيات أن يبيّن لنا دونما عناء أرقه من هذا الليل الطويل،وخاصّة أنّه مقيد بسلاسل في السجن، وهو الذي كان ينعم بحياة رفاهيّة ترتقي إلى حياة الملوك، وبعدما كان هذا الليل عليه قصيرا وقت مرحه ولهوه، تحوّل بين الحين والآخر إلى ليل طويل وكئيب، جرّاء الظلم الذي يمارَس ضدّه في غياهب سجن الصنين، ولثقل وطول هذا الليل العاتم يتمنّى الشاعر أن ينبلج الصبح، فربّما ينبلج معه الأمل والطمأنينة في قلبه.

د/المقدمة التخيلية:

تعدّ المقدّمة التخيّليّة من أندر المقدّمات التي عرفها شعراء العصر الجاهلي، فلا نكاد نعثر- على حد علمنا- على شعر أو حتّى قصيدة واحدة تبتدئ بمقدّمة تخيّليّة.وفي هذه المقدّمة يربط الشاعر حالته النفسيّة وما يصاحبها من مزاج متعكّر، على ما يحيط به من مظاهر الطبيعة كأن يشبّه حاله بالسحاب، أو بالمطر وما يصاحبه من تغيّرات في حالة الجوّ...وقد كان لهذه المقدّمات حضور في شعر

(عديّ)، حيث عرض لنا حالته النفسيّة السيّئة، وكأنّها تشبه السحاب بتشكيلاته المختلفة، والتي رسمت بمرورها سيوفا وثيابا، ويقول**(عمر شرف الدين)**عن هذه المقدمة في شعر الشاعر أنها:«مقدمة تخيلية جديدة في بعض قصائده، وفي هذه المقدمة يسقط حالته النفسية القاتمة على ما يحيط به من مرئيات الطبيعة، وقد رأى الشاعر حياته، وقد شكّلها السحاب بألوانه المختلفة التي قد ترسم بطيوفها سيوفًا وثيابًا بيضاء، وهي مقدّمة جديدة لم يعهدها الشعراء، ولم يألفها الشعراء في مقدمات القصائد الجاهلية»[30]، ومن نموذج هذه المقدّمة في الديوان نذكر قوله:[31]

(بحر الوافر)

أَرِقْتُ لِمُكْفَهِرٍ بَاتَ فِيْهِ بَوَارِقُ يَرْتَقِينَ رُؤُوسَ شَيْبِ
تَلُوحُ المَشْرِفِيّةُ فِيْ ذُرَاه وَيَجْلُو صَفْحَ دَخْدَارٍ قَشِيْبِ
كَأَنَّ مَآتِمًا بَاتَتْ عَلَيهِ خَضَبْنَ مَآلِيًا بِدَمٍ صَبِيْبِ
يُلَأْلِئْنَ الأَكُفَّ عَلَى عَدِيٍّ وَيُعْطَفُ رَجْعُهُنَّ إِلَى الجُيُوبِ

في هذه اللوحة التخيّليّة التي رسمها الشاعر، ربط فيها أرقه وما يعانيه في سجنه بالجوّ المتقلّب الذي فيه سحب التي جاءت متلوّنة بها سواد وبياض، وكأنّها رؤوس آدمية كساها الشيب.أمّا صوت الرعد فقد شبّهه بقرع السيوف التي تمزّق الثياب.وكلّ هذه الظواهر الطبيعية أسقطها على نفسه وحاله، حيث شبّهها بالمآتم والأحزان عليه، وعلى الوضع المؤسف الذي آل إليه، وما يزيد الصورة وضوحا واكتمالا هو صورة النائحات من النسوة، وقد حزنَ على الشاعر حزنا شديدا، وهذا من خلال ضربهنّ الأكف بالصدور، وقد حملنَ خرقا يَندبنَهُ، وقد ملأنَ هذه الخرق بدم صبيب حسرة على ما حلّ بالشاعر.

2- التشبيه المنفرد:

إن المتمعّن لشعر (**عديّ**) يجده دونما عناء يعجّ بالتشبيهات التي زادت من جمال نصوص شعره؛ وهذا راجع إلى خياله الواسع وثقافته الغزيرة التي أهّلته بأن يربط دقائق الأشياء ببعضها، ويعقد بينها مقارنة تقود إلى روعة التصوير بالتشبيه، والتي تزداد جمالا حين تنسجم مع بنية النصّ من حيث الدلالة، ومع الحالة الشعورية، وحين يكون التشبيه جديدا مدهشا، فإنه يحقّق فائدته التصويريّة الجمالية، التي لا تقف عند حدود التشابه الحسّيّ القريب الذي يصف الجزئيّات بسطحيّة فكريّة، ويتحدّث**(ابن الأثير (637هـ))**عن فائدة التشبيه في الكلام فيقول:«وأمّا فائدة التشبيه من الكلام فهي أنّك إذا مثّلت الشيء بالشيء فإنّما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أكّد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه»[32]ومن تشبيهاته المنفردة نذكر ما جاء في قوله:[33]

(بحرالكامل)

هَذَا وَرُبَّ مُسَوَّفِينَ صَبَحْتُهُمْ مِنْ خَمْرٍ بَابِلَ لَذَّةً لِلشَّارِبِ

بَكَرُوا عَلَيَّ بِسَحْرَةٍ فَصَبَحْتُهُمْ بِإِنَاءٍ ذِيْ كَرَمٍ كَقَعْبِ الحَالِبِ
بِزُجَاجَةٍ مِلْءَ اليَدَيْنِ كَأَنَّهَا قِنْدِيْلُ فُصْحٍ فِيْ كَنِيسَةِ رَاهِبِ

في هذه الأبيات ابتكر (عديّ) تشبيهين مستمدّين من البيئة الحضرّية التي عاشها، فقد وصف لنا الخمر وكلّ ما يتعلّق بها من مظاهر حضاريّة، وقد جمع فيها صور حسّيّة متنوّعة؛ مهّد لنا فتكلّم عن الخمر البابليّ ذي المذاق الرائع، الذي يعجب به كلّ من يشربه، وقد سقى به الشاعر أصدقاءه العطشانين صباحا، ولعظمة هذا الخمر فإنّه قدّمه في كوب قدح كبير فالشيء العظيم يقدّم في شيء عظيم، والزجاجة التي وضع فيها الخمر شبّهها الشاعر فوصفها بأنّها تشبه قنديلا، فصحّ الذي يوضع في كنيسة الراهب، فكلٌّ من الزجاجة والقنديل يجمعهما وجه الشبه وهو الإضاءة.ونرى التشبيه كذلك فيقوله:[34]

(بحر الطويل)

وَلَاتَكُ فِيْ الإِلْحَاحِ فِيْ إِثْرِ فَائِتٍ تُحَاوِلُ مِنْهُ فَائِتًا لَيْسَ يُطْلَبُ
كَصَانِعَةِ القَزِّ الَّتِيْ كُلَّمَا ارْتَدَتْ بِصَنْعَتِهَا كَانَتْ إِلَى اللَّبْثِ أَقْرَبُ

ففي هذا التشبيه التمثيلي المستمدّ من واقع البيئة المعاشة، نجد أنّ (عديّا) قد شبّه الإنسان الذي يلح في طلب الشيء الفائت بدودة القزّ التي تنتج نسيجا من الخيوط وتلفّها على نفسها، وكلّما زاد لفّها زادت بعدا عن الخروج منه، فالإلحاح بمثابة اللفّ في الصورة التشبيهيّة وهما صفتان لا تؤدّيان بفاعلها إلى الخير، وهذا التشبيه يعكس البيئة الحضريّة التي عاش فيها الشاعر، والتي سمحت له بإطلاق العنان لفكره، ليبدع في تشبيه وربط دقائق الأمور ببعضها بعضا، وفي هذا الصدد يقول (**حسين حسن الحاج**):«الظروف الحياتية المؤاتية تسهّل للإنسان الراحة والإطالة في التفكير بما يحيط به فينظر بعمق إلى باطن الأشياء ويتعمّق أكثر في موضوعاته»[35]، وبهذا يكون الشاعر قد أبدع وتفرّد في مجال التشبيه؛ لأنّ تأمّله وخبرته بالحياة جعلته يربط بين الأمور الدقيقة في الشبه.

3- موسيقى الشعر:

تُعَدُّ موسيقى الشّعر عنصراً مهمّا في إضفاء الإحساس الكامل على أرض الأثر الأدبيّ الشّعريّ، بإيقاعات تناسبه وتميّزه، وقد أخذت موسيقى الشعر حظّا موفّقا في قصائد (عديّ) من ناحية الإبداع على حساب بقيّة قصائد شعراء عصره، فعند قيامنا بالتقطيع العروضيّ لجميع قصائد ديوان (**عَدّي**)، وجدنا أنّه نظمها في تسعة بحور وهي: الرمل، والخفيف، الوافر، البسيط، المنسرح، المديد، السريع، الكامل، والطويل، أمّا البحور التي استعملها بكثرة فهي ذات الأوزان القصيرة خاصّة منها: بحر الرمل، وبحر الخفيف؛ فقد نظم على وزنهما سبع قصائد، وهذان البحران قلّما نجدهما عند شعراء العصر الجاهليّ، وكما هو معلوم أنّ الشّعر في البيئات الحضريّة الجاهليّة، ونقصد هنا الشعر

الحِيْرِيّ (**الحِيرَة**) هو شعر غنائيّ بالدرجة الأولى، وكان سبب ظهوره انتشار الغِناء والمعزوفات، والتي بدورها تتماشى مع الأوزان القصيرة، وعليه فلا ضير في إكثار الشاعر للبحور ذات الأوزان القصيرة؛ لأنّ معظم شعر (**عديّ**) هو عبارة عن أَغَانٍ وفي هذا الصدد **يقول (أبو الفرج الأصفهاني(356ه)):**«وفي سائر قصائد عديّ بن زيد التي كتب بها إلى النعمان يستعطفه ويعتذر إليه أغانٍ»[36]، ويُرجع **(غريناوم)** سبب استعمال "بحر الرمل" بكثرة عند شعراء منطقة الحيرة إلى تأثرهم بالفرس؛ فوزن"بحر الرمل" استعير من الوزن البهلويّ المتكوّن من ثمانية مقاطع، وقد عُدّل بما يلائم العروض العربيّ.[37]

ويرى **(عبد الله الطيّب)** أنّ:«موسيقى الرمل خفيفة رشيقة منسابة، وفيه رنّة يصحبها نوع من الملنخوليا أي الضرب العاطفيّ الحزين في غير ما كآبة ومن غير ما وجع ولا فجيعة... وهذه الملنخوليا المتأصّلة في نغم الرمل تجعله صالحا جدّا للأغراض الترنيمية الرقيقة. وللتأمّل الحزين، وتجعله ينحو عن الصلابة والجدّ وما إلى ذلك»[38]، ومن شواهد ما نُظم على بحر الرمل في شعر **(عديّ)** قصيدته التي قالها وهو مارّ على المقابر مع (**النعمان بن المنذر**)، والتي يبرز من خلالها تقلّبات الدهر على الإنسان وأن مصيره الموت لا محالة يقول:[39]

(بحر الرمل)

مَنْ رَآنَا فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مُوفٍ عَلَى قَرْنِ زَوَالْ
وُخُطُوبُ الدَّهْرِ لاَ يَبْقَى لَهَا وَلِمَا تَأْتِي بِهِ صُمُّ الجِبَالْ
رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يَشْرَبُونَ الخَمْرَ بِالمَاءِ الزُّلَالْ
وَالأَبَارِيقُ عَلَيْهَا فَدُمٌ وَعِتَاقُ الخَيْلَ تَرْدِي فِيْ الحِلاَلْ

عَمِرُوا دَهْرًا بِعَيْشٍ حَسَنٍ آمِنِي دَهْرَهُمْ غَيْرَ عِجَالْ
ثُمَّ أَضْحَوا أَخْنَعَ الدَّهْرُ بِهِمْ وَكَذلكَ الدَّهْرُ يُودِيْ بِالجِبَالْ
وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يَرْمِي بِالفَتَى فِيْ طلاَبِ العَيْشِ حَالاً بَعْدَ حَالْ

والمتأمل لهذه الأبيات يتبين له أن نفس الشاعر كانت في موقف التأمل الحزين وقد تملكه انفعال نفسي وثوران العاطفة فجاء الإيقاع متفاعلا مع الحدث الذي وافق بحر الرمل.

وإذا ما انتقلنا إلى بحر الخفيف والذي يتساوى وبحر الرمل من حيث الاستعمال في الديوان؛ فنجده مشابها تماما لبحر الرمل من ناحية الخفّة والتقطيع العروضي، فهو يصلح للغناء أكثر؛ لأنّه:«مزيج من الرمل والمتقارب فقد اكتسب من الأوّل نغمته العاطفيّة، ومن الثاني تدفّقه وتلاحق أنفاسه، ممّا جعله ذا أسر قويّ وجلجلة معتدلة»[40] وممّا جاء في قول (**عديّ**) على نسيج هذا البحر

نذكر قوله في صروف الدهر وتقلّبات الأحوال على البشر، مذكّرا بأنّ دوام الحال من المحال، وأن مصير الإنسان مهما بلغ شأنه هو الموت يقول:[41]

(بحر مجزوء الخفيف)

أَيُّهَا الرَّكْبُ المُخِبُّونَ عَلَى الأَرْضِ المُجِدُّونَ
فَكَمَا أَنْتُمْ كُنَّا وَكَمَا نَحْنُ تَكُونُونَ

وما يمكننا قوله حول اختيار (**عديّ**) لبحور الشعر العربيّ، هو أنّه اختار أعذبها وأرقّها وأخفّها، وهذا ما يتماشى مع رقّة وعذوبة البيئة الحضريّة آنذاك، ورقّة وسهولة لغته وألفاظه، وذلك ممّا لاءم سيرانها على بحور الشعر ذات الأوزان القصيرة في الديوان، فكأن: «البحر يجري حسب ألفاظه ولغته وفنّه لا الألفاظ تجري عليه»[42]، وبهذا يكون الشاعر قد أبدع وتميّز في هذا الجانب عن غيره من الشعراء.

خـــاتمة:

وصفوة القول: إنّ السمات الإبداعيّة في شعر **(عَديّ بن زيد العبّادي)**، وباختلاف المشارب التي استقى منهاإبداعه الشعري، من:(المكان، والزمان، والعامل النفسيّ، والواقع المعيش)، إلّا أنّها أسهمت في التنويع الفنّيّ الذي آتحفنا به شعره، وقد بدا لنا هذا جليّا من خلال ما عرضناه من سمات إبداعيّة في شعره والتي تبدّت لنا متشكّلة عنده في ثلاث نقاط هي:

- ✓ **من حيث بناء القصيدة**: ابتكر **(عَديّ)** مقدّمات لشعره لم تكن مألوفة عند أغلب شعراء عصره، والتي كانت بمثابة التجربة التأهيليّة للشاعر، والتي تدلّ على مقدار شاعريّته، وتمرّسه في قول الشعر.
- ✓ **من حيث الصورة الشعرية**: وُفق **(عديّ)** في إبراز تشبيهاته بطريقة واضحة خلت من الغموض والتعقيد، وعليه أسهمت في إبراز صوره الفنّيّة بطريقة واضحة لا لبس بها ولا غموض، وبنى الشاعر تشبيهاته على الدّقّة والملاحظة الصادقة لوجوه الشبه بين المشبّه والمشبّه به، وهذه الميزة قلّما تتوفّر عند الشعراء.
- ✓ **من حيث الإيقاع**: (الموسيقى الخارجية): نظّم **(عديّ)** معظم قصائد شعره على البحور ذات الأوزان القصيرة التي تمتاز بالرقة والعذوبة. ومن هذا كله نستطيع الحكم بتفرّد **"عَدّي بن زيد"** في الجانب الإبداعيّ الشعريّ، ونقول عن هذه السمات الإبداعيّة الفنّيّة التي تحلّى بها شعره، أنّها لا يمكن أن تتوفّر إلّا لشاعر متمكّن، فصدق الذي قال عنه إنّه شاعر مبتكر.

الهوامش والمصادر والمراجع:

(1) أدونيس: كلام البدايات،دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1989م، ص01.

(2) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح:محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، سورية، ج1، ط1، 1405ه/1981م، ص116.

(3) خالدة سعيد: حركية الإبداع (دراسات في الأدب العربي الحديث)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1406ه/1986م، ص08.

(4) هو عَديّ بن زيد، بن حماد، بن زيد،بن محروف، شاعر جاهلي من تميم عاش في بلاط كسرى أبرويز، وفي الحيرة حين ملكها النعمان بن المنذر، كان سياسيا، وأديبا، وشاعرا نصرانيا، اشتهر بشعر الحكمة والخمريات، وكانت له مكانة مرموقة في بلاط كسرى، وفي بلاط النعمان، هذا ما جعل الحساد يكيدون له المكائد، إلى أن وقع بينه وبين النعمان وشاية أدت إلى سجنه وقتله، وقد وردت أخباره مبثوثة في أمهات الكتب ينظر: الأغاني، و معجم الأدباء، و الجمهرة...

(5) باديس يوسف فوغالي: الزمان والمكان في الشعر الجاهليّ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2008م، ص181.

(6) ابن قتيبة: الشعر والشعراء،تح: احمد محمد شاكر،دار المعارف، القاهرة، مصر، ج1،(د.ت)، ص79.

(7) عدّي بن زيد العبّادي: الديوان، تح: محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والتوزيع والطبع، بغداد، 1965م ص144.

(8) المصدر نفسه، ص 152.

(9) حسن عبد السّلام وأحمد عبد الحميد: الموت في الشعر الجاهلي، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، مصر، ط1، 1991م،.ص128.

(10) عدّي بن زيد العبّادي: الديوان، ص64.

(11) المصدر نفسه، ص122.

(12) يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسه الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط5، 1407هـ/1986م، ص411-412.

(13) عبد المنعم الرجبي: الغربة والحنين إلى الديار في الشعر الجاهلي، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط1، 2012م، ص297.

(14) عدي بن زيد العبّادي: الديوان، ص127

(15) المصدر نفسه ص74.

(16) حنورة، مصري عبد الحميد سيكولوجية التذوق الفني،دار المعارف، القاهرة، ط1، (د.ت)، ص215، نقلا عن:إبراهيم عبد الفتاح حسن فراش:رثاء النفس في الشعر الجاهلي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تخصص: أدب عربي قديم،إشراف،عبد المنعم حافظ الرجّبيّ،قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الخليل، فلسطين،2017م، ص115.

(17) يحيى مخيمر صالح: رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، مكتبة المنار، الأردن، ط1، (د.ت)، ص50، نقلا عن إبراهيم عبد الفتاح حسن فراش:رثاء النفس في الشعر الجاهلي، ص116.

(18) عديّ بن زيد العبّادي: الديوان، ص38.

(19) المصدر نفسه، ص151

(20) أدونيس: مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1979م، ص15.

(21) نجيب عثمان ونجيب أيوب: صورة النار في الشعر الجاهلي (تفسيرا أسطوريا)، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، 2010م، ص211، نقلا عن: standard dictionary of folklore ,mythology and legeened et marialeche funk and wugnall company,1949 p:388.

(22) عدّي بن زيد العبّادي: الديوان، ص93.

(23) المصدر نفسه، ص.ن.

(24) المصدر نفسه، ص100.

(25) يحيى الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه،،ص304

(26) راجحة عبد السادة سليمان: ملامح من سمات الحضارة في شعر عديّ بن زيد العبّادي، مجلة كلية الآداب، جامعة المستنصرية، ع101، 2012م،ص 96

(27) عدّي بن زيد العبّادي: الديوان، ص56.

(28) حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ص238.

(29) عدّي بن زيد العبّادي: الديوان، ص59.

(30) ينظر: عمر شرف الدين :الشعر في ظلال المناذرة والغساسنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1987م، ص109.

(31) عدّي بن زيد العبّادي: الديوان، ص37.

(32) ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج1، 1995م، ص378.

(33)عدّي بن زيد العبّادي: الديوان، ص117.

(34)المصدر نفسه، ص 116.

(35) حسين حسن الحاج: الأدب العربي في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1997م، ص21، نقلا عن:حسين قائمي أصل وآخرون: اثر الحضارة الفارسيّة في شعر عدّي بن زيد العبّادي من منظور علم النفس الاجتماعي، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، قسم اللغة العربية، كلية اللغات، جامعة أصفهان، إيران، العدد 19(3)، 1433ه/2012م، ص106.

(36) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، مطبعة التقدم، مصر، ج2، (د.ت)، ص37.

(37) ينظر: عديّ بن زيد العبّادي: الديوان، ص18.

(38) عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعر العرب،دار الفكر، ج1،ط2، م1970، ص134.

(39) عديّ بن زيد العبّادي: الديوان، ص82، 83.

(40) عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، ص192.

(41) عديّ بن زيد العبّادي: الديوان، ص.180.

(42) راجحة عبد السادة سليمان: ملامح من سمات الحضارة في شعر عديّ بن زيد العبّادي، ص94.